الامراء الحرفوشيون

حكام بعلبك والبقاع وما يليها

١

توطئة

ان اشتغالي بالتاريخ الوطني مدة اربعين سنة ونيف حداني الى تتبع كثير من الأخبار المندرسة والتواريخ المشوشة فتقصيت البحث عنها بمراجعات كثيرة معتمداً على مراجع جمة من كتب مخطوطة ومطبوعة وتعاليق على اشباهها من المؤلفات وعلى روايات شيوخ وشيخات وكثرة سؤال وبحث فانجلى لي كثير من الغوامض وحللت بعض المشاكل بما وصلت اليه يد التنقيب وما ساعدني عليه الجلد وانفسح له الذرع والوقت فوضعت لمثل هذه المباحث كتاب (الأخبار المروية في تاريخ الأسر الشرقية) وقدملأ الآن تسعة مجلدات ضخمة وبدأت بالعاشر منها ولعله يكون آخر الأجزاء اذا لم ينكشف لي اشياء جديدة جديرة بالتدوين . وكذلك وضعت كتاب (تاريخ سورية المجوَّفة) اي وادي العاصي والليطاني وبردى حتى دمشق وانطاكية وحدود فلسطين أو وادي التيم كما كان يطلق ذلك على هذه الاماكن في القديم وفيها مباحث كثيرة عن قدماء الحكام ولاسيما الأمراء الحرافشة الذين لم اجد حتى الآن من تعرض لوضع تاريخ مفصل لهم مع أنهم قد حكموا عدة قرون ولهم علاقات شديدة بتاريخ سورية القديمة وكان لهم من المنزلة ما كان لحكام عهدهم من الأمراء التنوخيين والمعنيين والشهابيين العربي النجار والمشهورين في تاريخ البلاد الوطني المحبوب . ولقد سألت جهابذة علماء الشيعة الأفاضل في جبل عامل وغيرها عما يعرفونه عنهم

من الأنباء والانساب والحوادث فلم الق منهم مجيباً غير جهل شؤونهم الا نزراً منها فاعتمدت على المراجعة والتنقيب والسؤال من كثير من شيوخهم وشيخاتهم واستطلعت طلع اخبارهم من جدودي الذين رووا بعض اخبارهم وحفظوا بعض آثارهم لأنهم كانوا من المقربين منهم النائلين الحظوة لديهم في تضاعيف القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد وقد تركوا اوراقا تتعلق باولئك الأمراء مما فصلته في كتابي (دواني القطوف) المطبوع وفي مطالعته غنى عن تفصيل ما جرى لهم في تلك البقاع مما اطلت فيه الكلام وافضت البحث في تاريخي الاسر وسورية المجوفة وتاريخ زحلة وبعد أن وقفت على بعض مخطوطات في مدينة بعلبك مقر الأمراء الحرفوشيين أحقابا طويلة كلفت صديقي الشيخين علي النقي زغيب وتوفيق الصاروط من ادباء تلك البقعة الطيبة فساعداني بافادات اضفتها الى ما لدي ورأيت نشر شيء منها الآن في مجلة العرفان الغراء لعلَّ من لديه شيء عنهم يزيدني بيانا وتصحيحا لما زلَّ به القلم وضل فيه البحث تحقيقا لتاريخهم والله اعلم بما وراء ذلك من المكتومات التي تكشفها الأيام فتجلو مبهمها

على انني لا اجد مندوحة عن تذكير اخواني أدباء الشيعة الكرام وعلمائهم الأعلام أن يتحفوني بكل ما لديهم من انباء امرائهم وشيوخهم واعيانهم وعلمائهم في سورية ولبنان وجبل عامل والعراق ليتم بحثي عنهم في تاريخ الأسر الممثل بالطبع واشكر لهم عنايتهم مقدما

اصل الحرافشة وانسابهم

ينتسب الأمراء الحرفوشيون الى خزاعة بن لحي بن عمرو بن عامر بن قمعة بن الياس بن مضر وقيل إنهم قحطانيون من الأزد وكانت مواطنهم في انحاء مكة المكرمة ولهم ولاية البيت الحرام قبل قريش الذين كانوا احلافهم

فلما اتصلت تلك الولاية بأبي غبشان وخسرها كما هو مذكور في التواريخ هجروا البيت فانخزعوا وتفرقوا فاشتهروا باسم خزاعة وتدير بعضهم بغداد وهم فيها الى اليوم باسم عرب خزاعة أو الخزاعل من الشيعة [1] وباسم آل عبيد من السنة . فمن خزاعة هؤلاء جاء فريق مع الامام عمر بن الخطاب (رض) كان رأسهم دعبل الخزاعي وقيل حرفوش الخزاعي حامل رايته فشهدوا فتوح الشام واستقروا مدة في غوطتها وانتقلوا الى بعلبك وكان منهم نصر الخزاعي فيها حين مرور سبايا اهل البيت من العراق الى الشام

أما تسميتهم (بحرفوش) فلم نجد احدا تعرض لها من النسابة ولا المؤرخين ولكن المتداول على السنة بعض معمريهم كما نقل لنا اجدودنا المتصلون بهم أن احد اسلافهم اشتهر في بعلبك باسم (حرفش او حرفوش) فنسبوا اليه ولا تزال اطلال قرية (حَرفش) شرقي بعلبك على بعد ساعة ونصف منها الى جنوبي قرية (عين برضَيه) تدل على هذه التسمية فلعلّ ذلك السلف سكنها فنسب اليها والله اعلم

واول من ذكر في التواريخ التي بين ايدينا منهم هو الأمير علاء الدين الحرفوش الذي نال امرة الطبلخانة من الرتب العسكرية العليا في ايام ملوك الشراكسة نحو سنة ٧٩٢ هـ (١٣٩٠م) وكان قائدا لعشران البقاع في موقعة منطاش المشهورة فقتله منطاش وكان قد قتل قبله اباه واخاه ولم نعلم اسميهما [2]

وكان قد نال قبله في عصره هذه الامارة من الوطنيين البعلبكيين علاء الدين بن معبد وابن حميد ولها شروط ذكرها المقريزي في كتاب (السلوك)

---

(١) ولقد عرف الحرفوشيون لأنسبائهم الخزاعل وفرّ بعضهم اليهم في بعض الحوادث التي هجروا فيها بلادهم ومقر ولايتهم (٢) راجع تاريخ بيروت لصالح ابن يحيى طبع الآباء اليسوعيين في بيروت صفحة ٢٤٨ و ٢٤٩ وقد غلط بقوله ابن (الحاش)

والقلقشندي في (صبح الأعشى) وغيرهما

ولم نجد للامراء ذكراً بعد ذلك الا بعد الفتوح العثماني بنحو ثلاثة ارباع القرن . والظاهر أن السلطان سليما الفاتح العثماني لم يؤمر الحرافشة على بعلبك لمناهضته للشيمة ولهذا ذكر ابن اياس في تاريخ مصر أن جان بردي الغزالي نائب الشام من قبل ملوك آل عثمان تحايل على ناصر الدين ابن الحنش شيخ الاعراب والبقاع وقتله وقتل شخصاً آخر من مشايخ العربان يقال له ابن الحرفوش وحز رأسيهما وارسلهما الى ابن عثمان بحلب [1]

وبدء حكم الحرافشة الذي ذكره المؤرخون كان سنة ١٠٠١هـ (١٥٩١م) واول حاكم منهم في بعلبك الأمير علي بن موسى الحرفوشي ومنه تسلسل الامراء الى اليوم والمشهور أن الحكومة العثمانية قرضت هذه الاسرة فبقي منها اربع نساء فقط [2] احداهن كانت حاملا فاختفت في قرية الحربية قرب بعلبك فوضعت غلاما سمته اسماعيل فمن هذا الأمير تسلسل عشرة ذكور كانوا رؤوس الأسرة وذلك في اوائل القرن الثاني عشر للهجرة الثامن عشر للميلاد . وبقيتهم الآن في قرى بلاد بعلبك مثل سرعين وشمث وبوديه والنبي رشاده . ولهم بقايا في الاستانة بعد نفيهم اليها وفي القطر المصري . وكان بأيديهم لوح نحاسي في انسابهم اخذه منهم ابراهيم باشا المصري كما يقال وبقاياهم اليوم قليلة ومعظمهم اخنى عليهم الدهر فنالتهم ايدي الفاقة والعسر الا نفراً قليلا منهم لا يزالون في يسر وبسطة من العيش ولا سيما من كان منهم في الاستانة ومصر فإنهم بمراكز كبيرة وجاه عريض

---

(١) راجع تاريخ مصر لابن اياس (٣ : ١٦٢) من طبعة مصر ١٣١٢ هـ

(٢) ولهن قصة غريبة مع من اختبأن عندهم في بلاد بعلبك لا محل لتفصيلها الآن

بدأ حكم الحرافشة في بلاد بعلبك تاريخيا سنة ١٠٠١ هـ (١٥٩١م) وانتهى فيها سنة ١٢٨٢هـ(١٨٦٦م) فتكون مدة حكمهم بتقطع احيانا نحو قرنين وثلاثة ارباع القرن وكانوا عمالا للحكومة التركية من قبل ولاة الشام وطرابلس وصيداء فاستعمروا بعض القرى واكثروا فيها قصورهم وعقاراتهم ومواشيهم واتصلوا بالبقاع ايضا فعمرت بهم القرى البعلبكية مثل مدينة بعلبك وقرى سرعين ورأس بعلبك واللبوة والهرمل . والقرى البقاعية مثل كرك نوح وقب الياس ومشغرة فحضَّروا ابعض القبائل البدوية من عرب واكراد مثل بني حمية الاكراد وغيرهم . واتخذوهم عونا لهم لبسالتهم . واتصلت بهم اسر اخرى من الشيعيين كآل الحاج سليمان والمسيحيين فكانوا مدبرين لهم وكتابا وتقرب منهم الشعراء فمدحوهم واجزلوا صلاتهم ونبغ من هؤلاء الأمراء شعراء ومؤلفون

وكثيرا ما كان الحرفوشيون يتلاعبون بمقاطعتي طرابلس وصيداء المجاورتين لهم تلاعبا كثيراً

ولقد عضدوا المسيحيين بفضل مدبريهم منهم وبينهم المعلوفيون اسلاف كاتب هذه المقالة بل جدوده خاصة وآل المطران البعلبكيون وغيرهما

والتجأ اليهم الشيعيون من جبل عامل ولبنان في ايام ضيقهم فاحسنوا وفادتهم . وفرّ من وجههم كثير الى انحاء أخرى ولا سيما النصارى وكان الحرفوشيون مثل بقية الاقطاعيين من اترابهم الامراء يضمنون المقاطعات من مقام الولاية ويدفعون عنها مالا مقطوعا ثم يصادرون الأهلين ويأخذون من اموالهم وحاصلات اراضيهم ما تسول لهم النفس اخذه . وقدلا يبقون على شيء ولا يذرون ولاسيما لمن خالفهم أو مال الى اعدائهم وعضد خصومهم

فوفرت عقاراتهم ومواشيهم واموالهم ولكنهم اذابوا كل ثروتهم الواسعة بمظاهرهم وحبهم للعظمة والجاه وكرمهم الطبيعي شأن السلائل العربية الأصل فكانوا اشبه بملوك مستقلين في اماراتهم ولهم عادات في تحصيل المال المكسور واخذ الحق من القوي للضعيف ومن الظالم للمظلوم . ومقر امارتهم الرئيسي (بعلبك) فيسجنون وينفون ويضربون ويقاصون بجميع الوان العذاب ويصادرون اموال الرعية ناهين آمرين كما يشاؤون

وكثيراً ما كانوا يتقربون الى عظماء الدولة ووزرائها وحكامها ويصاهرون من يجاورهم من امراء لبنان وبقية المقاطعات ويأخذون منهم نساءهم مثل الأمراء بني سيف حكام طرابلس والامراء آل معن حكام لبنان الجنوبي وكانوا يلقون الفتن بعضهم مع بعض ويتطرقون الى فتن الحكام والرعية فيمدون ايديهم الى المطامع والاستئثار وينزعون الى الاستبداد في الحكم والعناد في الرأي فكانوا مدة حكمهم شرارة تضرم نيران القتال والخصام في قلب سورية ولبنان الى أن ضرب على ايديهم ابراهيم باشا المصري في الثلث الأول من القرن التاسع عشر الماضي واوقفت تيارات استبدادهم الدولة العثمانية في اوائل النصف الثاني من القرن المذكور . فتمكنت الدولة المصرية ايام حكمها في سورية من نزع عقارات الأمراء الحرفوشيين من ايديهم وعينت لهم عوض ذلك رواتب مائة الف غرش توزع عليهم

ثم تمكنت الدولة من نفيهم الى الاستانة وجزيرة كريد وغيرها فنزعت الحكم من ايديهم وصادرت عقاراتهم وقصورهم

وكانت لهم امارة الطبلخانة من راية وطوخ وطبول وزمور فإذا مشوا تدق أمامهم الطبلتان وتتقدمهم رايتهم الحمراء ذات الخط الأخضر وعندهم السيطري كالحاجب (أو الياور) يحفظ الباب ويناديه الأمير ليجلب القهوة

والشبق (الغليون) ونحو ذلك من الضيافات اكراما لضيوفهم وكانوا يتناولون القهوة قبلهم وكلهم مولعون بالشبقات والقهوة وركوب الخيل ولعب الميدان وصيد الحجل ولهم (الخوالية) وهم كالجند في تحصيل الأموال والصوباشية في اعمالهم .

وللحرافشة اياد جميلة في الأبنية والترميمات والحصون ونحوها مثل تجديد الأمير يونس الحرفوشي لمسجد النهر في بعلبك وعليه تاريخ شعري لسنة ١٠٢٨هـ (١٦١٧م) . وبناء قصر الأمير عمر حاكم بعلبك سنة ١٠٧٧هـ (١٦٦٦م) التي نظم فيه قصيدة ختمها بتاريخ الشيخ عبد الرحمن التاجي وتشييد دار الأمير اسماعيل في بعلبك سنة ١١٤١هـ (١٧٢٨م) فأرخها الخوري نقولا الصائغ بابيات .

ومن اهم ابنيتهم دورهم في بعلبك معروفة اليوم بدور الحكومة وبعض الأعيان وفي القرى مثل سرعين والنبي رشاده وقب الياس ومشغره والكرك ومن حصونهم اللبوة وقلعة قب الياس وحدث بعلبك وحصن القردوح وغيرها

واشتهروا بجمال الصورة والهيبة والتنافس بالجياد المطهمة والاسلحة الثمينة وتروضوا بالفروسية والصيد واشتهروا بالبسالة في الحروب مماهو مدون عنهم في بطون التواريخ

ومع كل ذلك عرفوا بالفتك والغدر حتى بذوي قرباهم كما يشهد التاريخ

عيسى اسكندر المعلوف
عضو المجمع العلمي العربي في دمشق

العرفان، كانون الثاني ١٩٢٤، من صفحة ٢٩١ إلى صفحة ٢٩٧